

اشتد أيضا في الوقت نفسه مركز الأبحاث حتى أصبحوا المنازع الوحيد للفرس في تجارة الهند :

انتقل زمام الحكم من البارتيين الى الساسانيين في سنة 225 م ومن أهم ما امتاز به الساسانيون اهتمامهم بتشجيع الملاحة عند الفرس - الناحية التي لم يلتفت اليها أسلافهم قط ، يتجلى هذا الاهتمام فيما قام به أول ملوك الأسرة الجديدة ، اردشيسر الأول (225 - 241 م) من انشاء الموانئ وما اليها . وفي مطلع القرن الرابع نسمع عن حملة العرب سكان الساحل الغربي على الفرس بالساحل الآخر عبر الخليج الفارسي ثم عن انتقام سابور الثاني من العرب بعد ذلك بزمن قليل مما يدل على تقدم الملاحة واجتياز المنصرين دورا من المزج والصح في بوتقة واحدة . وفي هذه الأثناء زالت روما وخلفتها قسطنطينية سنة 330 م كما ان حمير استكملت سيادتها على الجزء الجنوبي من جزيرة العرب حتى أصبح التبغ « ملك سبأ وحضر موت ويعنات ونهامة » لكن حمير كانت الآن مهددة تماما من قبل الحبشيين الذين كان يجري في عروقهم دم المهاجرين من اليمن نفسها وفعلا بدأ ملوك كسوم (Axum) يتحرشون بسكان الساحل الشرقي للبحر الاحمر منذ اواخر القرن الثالث حتى نجحوا في النصف الاول من القرن الرابع في اخضاع حمير لسيادتهم ، ومع ان سيادتهم لم تدم الا برهة قصيرة استأنفت حمير بعدها استقلالها الا ان الحبشيين بقوا عاملا يعتد به في كل ما يتعلق بالتجارة والسياسة في البحر الاحمر .

لقد مررنا سريعا بالقرن الثالث والرابع والخامس لقلنا المصادر عنها غير ان الوثائق التي سردناها تعطينا فكرة عن التيارات الآخذة في النمو والاشتداد وما ان نصل الى القرن السادس حتى نرى نتائجها واضحة مستكملة وهي تلخص في استيلاء الحبشيين مرة أخرى على حمير سنة 525 م ، ومما يسترعي الانتباه ان ذانواس لم يكن يملك أسطولا ولم يظهر اية مقاومة الا بعد وصول المهاجمين الى البر ، ثم جاءت النهاية الكبرى للخراب الذي كان يتسرب

في كلتا الملكتين المتخاصمتين ويتقلون البضائع بينهما وذلك الى سنة 273 م - الوقت الذي رأى فيه الروم ان الفرصة قد سنحت للاستيلاء على تدمر كما كانت تد استولت على الرقيم من قبل .

يتجلى لنا في جغرافية بطليموس (حوالي 150 - 160 م) مدى التقدم الذي كان قد أحرزه التجار الروم في الاستيلاء على التجارة الشرقية وذلك طبعا على حساب نفوذ العرب ومصالحهم فقد كانوا عرفوا خليج البنغال بما فيه مصب نهر الكنك (Ganges) و « بلاد الذهب » (جنوبي ملايو) كما ان واحدا منهم على الأقل يسمى الاسكندر كان قد زار طونكينج (Tong King) ، كذلك وصل وفد منهم في سنة 166 م الى عاصمة الصين ليشكو من احتكار الايرانيين لتجارة الحرير ويعرض انشاء علاقات مباشرة عن طريق الهند (49) ومن جهة اخرى تفيدنا المصادر الهندية التاميلية (Tamil) عن وجود جاليات للروم في جنوب الهند وانخراطهم في خدمة الامراء الهنود (50) كما ان ظهور التجار الهنود في أسواق الاسكندرية - الأمر الذي يشهد به Dio Chrysostom على عهد طراجن (51) يعد دليلا على نمو العلاقات التجارية المباشرة بين الروم والهند .

وهكذا استمرت هذه الحركة قوية طوال القرنين الثاني والثالث بينما أصبحت العرب غير ذات شأن الى ان حدثت تطورات سياسية جديدة وساعات احوال روما الاقتصادية وانخفضت قيمة عملتها التي كان يتعامل بها كل من العرب والهنود فكانت النتيجة ان ركبت التجارة وتضاعفت الى ادنى حد بدليل انه لم يعثر في الهند على العملة الرومانية الراجعة الى ما بعد 211 م الا القليل النادر (52) .

*/

لقد رأينا أننا كيف ان العرب غلبت على تجارة الهند ولكن القضاء لم يمهل الروم طويلا ليجنوا من ثمرات نصرهم فسئرى كيف ان الفرس حلوا محل العرب والروم جميعا اثناء القرون التالية ، نعم وقد

(49) انظر Hirth: China & the Roman Orien, 1885 ص 173 - 178 .

(50) Rawlinson ص 121

(51) المصدر نفسه ص 140

(52) المصدر نفسه ص 151

لم ينجحوا في ذلك لما كان يتمتع به الفرس من النفوذ وحسن ادارة الامور في اسواق سيلان والهند. ولم يقتصر نفوذ الفرس عند هذا الحد بل تعداه الى انشاء مراكز لهم في سقطورة وفي (Adulis) نفسها واخيرا نراهم يطردون الحبشيين من اليمن ويفتزعونها لانفسهم حوالي 570 م .

هكذا تمت للفرس السيطرة على جميع المياه الواقعة بين سيلان من جهة وساحل شرق افريقيا من جهة أخرى ، وكان من الطبيعي أن يصبح الخليج الفارسي الطريق الرئيسي لتجارة الهند في عهدهم ، كما كان البحر الاحمر ابان نبوغ الروم من قبل . ونجد هذه الاحوال منعكسة على الشعر الجاهلي العربي والروايات التي وصلتنا عن ذلك العهد : فهل ادل على الاتصال الوثيق المستمر بين الهند والخليج الفارسي من ان الابل كانت تعرف بـ « فرج الهند » (55) كذلك يرجح ان « عدولية » في قول طرفة :

عدولية او من سفين ابن يامن (56)

يجور بها الملاح طورا ويهتدي

هي السفينة المنسوبة الى (Adulis)

مما يدل على الاتصال بينهما وبين الخليج الفارسي .

بقي ان نتساءل : ماذا كان نصيب العرب من الملاحة والتجارة في هذا العهد ؟ يبدو انه لم يكن لهم صفة مستقلة ، انما كان اهالي عمان وما حوالها

الى اليمن منذ قرون بشكل انشقاق سد مأرب ما بين 542 — 570 (53) اما الفرس فكانت مكانتهم عالية ممتازة جدا ، كانوا قد اكتسحوا الروم من الموانئ الهندية وكانوا كما يشهد به (Procopius) و (Cosmos) يتسلمون الحرير الوارد عن طريق البحر من « الصين » (Sinæ) الساحلية في سيلان بينما كانوا هم انفسهم مسيطرين على الخطوط البرية الموصلة عبر وسط آسيا الى (Seres) مصدر « السرق » (54) اي الصين الشمالية . مخرصة القول انه لم يكن احد ينفذ من الحصار المضروب من قبل الفرس على الموانئ الهندية الا الحبشيون الذين كثيرا ما ترددوا ببضائعهم ، ولا سيما العاج ، على سيلان والساحل الغربي للهند حتى على موانئ الفرس انفسهم وكانت (Adulis) (حاليا Massawa) ميناء الحبشة الرئيسي (وتعادة الهجوم على اليمن) ، في هذا الوقت مركزا تجاريا هاما لان الروم كانوا قد اضطروا الى قصر نشاطهم على الاتصال بها والحصول على طلباتهم منها ولم يكونوا يستطيعون التجاوز عن باب المنذب الا قليلا ، وهل ادل على تخرج موقف الروم وعجزهم من انهم تو ما سمعوا عن استيلاء الحبشيين على اليمن بعثوا بعيد 531 م بسفارة من قبل الامبراطور (Justinian) الى اكسوم يطلبون من الحبشيين ان يحاولوا شراء الحرير راسا من الهنود وبيعه لهم (الروم) لكي تتوفر الاموال التي كان الروم مضطرين الى دفعها لاعادتهم الفرس، وفعلا حاول الحبشيون العمل بهذا الاقتراح الا انهم

(53) المهم ان انشقاق سد مأرب كان نتيجة لا سببا لخراب اليمن وتشتت سببا . انظر Hitti ص 65
(54) ظل العالم الغربي يجهل حقيقة طويلة ان (Sinæ) التي كان الوصول اليها عن طريق البحر و (Seres) التي كان الوصول اليها عن طريق البر انما كانتا تمثلان جزئين لبلد واحد ، كما ان سكانهما كانوا من شعب واحد ، وتمثل كلمة « السرق » بالعربية (* بالانجليزية « Silk ») الحرير الوارد عن طريق البر اي ايران (بالفارسية « سره » والاصل بالمنقولة (sirkek) والصينية « ssi ») انظر (Periplus) ص 266 .

(55) تاريخ الطبري (ليدن 12 / 2021 ، انظر ايضا 2023 حيث جاء : « كان فرج الهند اعظم فروج فارس شأننا واشدها شوكة وكان صاحبه يحارب العرب في البر والهند في البحر »
(56) ورد ذكر ابن يامن في بيت لامرئ القيس ايضا:

او المكرعات من نخيل ابن يامن
المشقر : قصر بالبحرين (البلدان لياقوت) . يرجح الدكتور سليمان الندوي انه كان تاجرا عربيا يهوديا هناك (عربون كي جهاز رائي ص 26) .

(57) انظر (Hourani) ص 42 . اما اللغويون فنجد اقوالهم متناقضة مما ينم على نوع من التخبط : عن الاصمعي عدولي قرية بالبحرين ، وقيل موضع يسمى عدلولة ، وعن ابن الكلبي : عدولي ليسو من ربيعة ولا مضر ولا ممن يعرف من اليمن انما هم امة على حدة (كذا في اللسان « عدل ») .

قد اختلفوا اختلافا كبيرا بجيرانهم الفرس ، وكان من الطبيعي أن يشاركوهم أعمالهم مما اكسبهم دراية وخبرة . او لا نرى الى ازد عمان وهم يحتقرون لكونهم « مزونيين » وملاحين كما أن كبراءهم ربما نسبوا في معرض الهجو الى أصل فارسي (58) . أما الصور الرائعة لمناظر البحر واهواله وسير السفن فيه التي يزخر بها ديوان العرب ، فلا يصح أن تتخذ دليلا على مزاوله العرب للملاحة أو اهتمامهم بها ولا سيما اذا كان هناك ما يؤكد استهجانهم لها ، أما كانت تلك الصور كليشاهات نقلت الى داخل الجزيرة من المناطق الساحلية (59) .

/*/

على ضوء ما سردناه آنفا من الاوضاع السائدة في القرن السادس نستطيع أن نفهم جيدا بعض الحوادث التي وقعت في أوائل العهد الاسلامي، فمثلا حملة أهل عمان البحرية على فارس وحتى سواحل الهند وكجرات بدون سابق اذن من الخليفة الثاني عمر إنما تدل على المعرفة القديمة والتحمس الجديد لإثبات استقلالهم عن الفرس الذين كانوا متفوقين عليهم من قبل ، كذلك نرى كيف أن عمر الذي كان حذرا خائفا من « حمل الدود على العود » اضطر الى السماح بمهاجمة (Adulis) لاشعار الحبشيين بانتهاء سيطرتهم السابقة على المياه المجاورة ثم توسعت الفتوح الاسلامية حتى شملت مصر من جهة والهند من جهة أخرى فكانت النتيجة أن أصبح طريقا الخليج الفارسي والبحر الأحمر تحت سلطة واحدة وتلك غاية طالما تأقت الحكومات المختلفة الى تحقيقها فلم توفق الى ازالة الحدود بين العراق وسوريا كما قد رأينا من قبل وتبع هذا التطور الجديد أن ارتفع التنافس والتسابق بين المنطقتين ورجع نشاط كل منهما الى ما كانت تقتضيه طبيعة العمران والاستهلاك المحلي ، وبما أن خط الخليج الفارسي كان أكثر استقامة واقرب مسافة وأوثق اتصالا وأن التجار لم يلجأوا الى البحر الأحمر الا للضرورة ، لذلك استمر هو الأول الطريق المفضل لتجارة الهند كما كان منذ

عهد الساسانيين ومما زاد في نشاط هذه الناحية زيادة ملهوسة انتقال عاصمة الخلافة ومركز الحضارة الى بغداد ولعل قول مستشار المنصور الذي يسط فيه مزايا الموقع الجغرافي لتلك المدينة يقوم أوضح دليل على أهمية العلاقات التجارية التي نحن بمصددها، قال دهقان بغداد للمنصور : « ... تحمل اليك طرائف الهند والسند والصين والبصرة وواسط في دجلة ... » (60) .

يصدق هذا القول ما أورده الرحالون والجغرافيون أمثال سليمان التاجر (237 هـ) وابن خرداذبه (232 هـ) والمسعودي (332 هـ) والمقدسي (375 هـ) بشأن ازدهار التجارة والعمران في الأبله وسيراف والبصرة ، لقد كانت المراكب تطلع من هذه الموانئ الى مسقط ومن هناك رأسا الى كولم الى (Quilon)

بجنوب الهند حيث كانت تفترق الطرق فاما الى ساحل الدكن (جنوب الهند) الشرقي واما الى سرنديب (جزيرة سيلان) وكله (Kedah بملايو) على الطريق الى الصين ، هذا فضلا عن حركة التجارة المتصلة بالموانئ القائمة على الساحل الغربي للهند فوق كولم ومن أشهرها الديبل على مصب نهر السند وكتبايت وبروص (Broach الحالية) بكجرات وتانه وصيمور (Chimur) وسوباره

(Churparaka = Sopara)

بإقليم بومباي ولنقدر مدى توثق العلاقات بين المصدرين الهنود وزبائنهم بقول سليمان عن ملوك الكمك (Konkon) أنهم « يعمرون ربما ملك أحدهم خمسين سنة وترغم أهل ملكة بلهرا (Rashtrakutas = « Vallabhrai ») إنما يطول مدة ملكهم وأعمارهم في الملك لمحبتهم للعرب وليس في الملوك أشد حبا للعرب منه وكذلك أهل مملكته (61) لم لا والرخاء الاقتصادي في البلاد كان يتوقف على تصريف المنتجات في أسواق العرب ؟

ومما يلاحظ في هذا الصدد أن انتشار الإسلام الى الجانب الشرقي للخليج الفارسي ساعد كثيرا على تكوين شعب واحد من الفرس والعرب سكان السواحل في تلك المنطقة وقد كانوا اختلفوا

(58) المهلب بن أبي صفرة مثلا .

(59) انظر دائرة المعارف الاسلامية « السفينة » .

(60) البلدان لياقوت (ط أوربا) 681/1 .

(61) سلسلة التواريخ ص 27 .

يركبون في البحر الغربي فربما عدلوا بتجاراتهم التي القسطنطينية فباعوها من الروم وربما صاروا بها إلى ملك فرنجة فيبيعونها هناك ، وان شاعوا حملوا تجارتهم من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بانطاكية ويسيروا على الأرض تلك مراحل إلى الجابية ثم يركبون في الفرات إلى بغداد ، ثم يركبون في دجلة إلى الأبله ومن الأبله إلى عمان والسند والهند والصين كل ذلك متصل بعضه ببعض (63) .

ثم يحدثنا ابن خرداذبه عن التجار الروس الذين كانوا يقومون بالعمل نفسه :

« هم جنس من الصقالبة فانهم يحملون جلود الخنزير وجلود الثعالب السود والسيوف من أقصى صقلية إلى البحر الرومي فيعشرهم صاحب الروم وان صاروا في تيبس نهر الصقالبة مروا بخليج مدينة الخنزير فيعشرهم صاحبها ثم يصيرون إلى بحر جرجان ... وربما حملوا تجارتهم من جرجان على الأبل إلى بغداد ويترجم عنهم الخدم الصقالبة ويدعون أنهم نصاري فيؤدون الجزية ، فأما مسلحهم في البر فان الخارج منهم يخرج من الأندلس أو من فرنجة فيعبر إلى السوس الأقصى فيصير إلى طنجة ثم إلى افريقية ثم إلى مصر ثم إلى الرملة ثم إلى دمشق ثم إلى الكوفة ثم إلى بغداد ثم إلى البصرة ثم إلى الأهواز ثم إلى فارس ثم إلى كرمان ثم إلى السند ثم إلى الهند ثم إلى الصين (64) .

أما البضائع والمنتجات التي عرفت الهند بها بين العرب فقد أشار إليها بالأجمال أيوب بن القرية (من أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث) حينما سأله الحجاج عن الهند فأجاب بقوله : « بحرها در وجبلها ياتوت وشجرها عطر » (65) . وقد عرض لها بالتفصيل أبو زيد السيرافي حيث قال :

« بحر الهند والصين الذي في بطنه اللؤلؤ والعنبر ، وفي جباله الجواهر ومعادن الذهب ، وفي أفواه دوابه العاج ، وفي منابته الإبنوس والبقم والخيزران وشجر العود والكافور والجوزبوا والقرنفل والصندل وسائر الأنواع الطيبة الذكية وطبوره الغفافي (يعني البيفارات والطاويس) وخرشبات

وأمتزجوا إلى حد كبير في العصر السابق ، ولذلك تراهم في العصر الإسلامي يشتركون في أعمال الملاحة والتجارة اشتراكهم في استعمال اللغة العربية كتابة وخطابة مما يجعل من الصير التمييز بين العنصرين ، إلا أن نظرة واحدة على أسماء النواخذة الوارد ذكرهم في كتاب عجائب الهند ليزرك بن شهريار (62) تكفي للتدليل على وجود العنصر الفارسي بل وعلى غلبته أيضا .

أما مقدار التجارة عن طريق البحر الأحمر فكان وفقا لحاجة مصر لا غير والسبب نفسه يرجح أنه زاد كلما ارتفع شأن مصر على اثر انحلال الدولة العباسية لاشك أن عمر كان قد جدد فتح القناة القديمة بين النيل والقلمز إلا أنه لم يكن يستهدف من ورائه غير نقل الميرة إلى الجار ميناء المدينة .

وأخيرا يجب التنبيه على أن ظهور الإسلام وان أدى إلى قيام دولة واحدة تشرف على طريقي الخليج الفارسي والبحر الأحمر إلا أنه في الوقت نفسه سبب القطيعة بين الدولة الجديدة وبيزنطة ، تلك القطيعة التي استمرت طوال القرون المتعاقبة بحيث لم تكن تسمح لتجار إحدى الدولتين بالأطمئنان إلى انشاء صلات مستديمة مع الدولة الأخرى فكانت النتيجة ان انحصرت مهمة نقل البضائع بين دار الإسلام وبلاد المسيحية في أيدي اليهود الذين يتحدث عنهم ابن خرداذبه بقوله :

« يتكلمون بالعربية والفارسية والرومانية والافرنجية والاندلسية والصقلية وانهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق برا وبحرا ، يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباغ وجلود الخنزير والفراء والسمور والسيوف ، ويركبون من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بالفرما (Pelusium) ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلمز ... ثم يركبون البحر الشرقي من القلمز إلى الجار وجدة ، ثم يمضون إلى السند والهند والصين فيحملون المسك والعود والكافور والدار صيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا إلى القلمز ثم يحملونه إلى الفرما ، ثم

(62) Leide, 1883-86

(63) المسالك والممالك 153 — 154 .

(64) المسالك والممالك 153 — 155 .

(65) الاخبار الطوال للدينوري ص 326 .

أرضه الزباد وخباء المسك وما يحصيه أحد لكثرة
خير» (66) .

هذا وقد جمع أحد من الشعراء الموالي اسمه
أبو الضنع (كذ) في معجم المرزبانسي 513 وفي
المفهرست 174 «أبو الصلح» (السندي كل ما
امتازت الهند به من وفرة الإنتاج واشتهرت به من
جودة الصناعات في آبيات رائعة في معرض المدح
والافتخار، قال :

لقد انكر أصحابي : وما ذلك بالأمثل
إذا ما مدح الهند وسهم الهند في المقتل
لعمري أنها أرض إذا القطر بها ينزل
يصير الدر والياقوت والدر لمن يعطل

فمنها المسك والكافور والعنبر والمندل
وأصناف من الطيب ليستعمل من يتفل
وانواع الأغاويه وجوز الطيب والسنبل
ومنها العاج والساج ومنها العود والصندل
وان أتوتيا فيها كمثل الجبل الأطول
ومنها الببر والنمر ومنها الفيل والدغفل
ومنها الكرك والبيغاء والطاووس والجوزل
ومنها شجر الرانج والساسم والفلفل
سيوف ما لها مثل قد استغنت عن الصيقل
وأرماع إذا ما هزت اهتز بها الجففل
فهل ينكر هذا الفضل إلا الرجل الأخطل ؟

الآثار للقرظيني ص 85 وانظر الحيوان 50/7 .

الألفاظ الهندية المعربة

بعد . وعلى هذا فالتأكد من كون الهند الموطن الأول
لبضاعة من البضائع إذا اقترن بثبوت استيراد العرب
لتلك البضاعة منها (الهند) ينهض دليلاً قوياً . بل
قاطعاً . في كثير من الأحوال ، على أن الاسم هندي
الأصل كالبضاعة ذاتها . فمن الأمثلة المتفق عليها من
هذا القبيل الموز والكافور والقرنفل والصندل والساج
والمسك والليمون والنارجيل وأسماء عدد من العقاقير
كالطريفل وجميع أصناف التوابل تقريباً كالفلفل ،
وسنرى أننا لو سرننا على هذه القاعدة لكان في
وسعنا أن نلقي بعض الضوء على أصول عدد من
الكلمات التي لا يزال يكتنفها شيء من انغموض .

ولا يخفى أن لبحثنا هذا جانباً آخر على درجة
كبيرة من الأهمية وهو أن معظم تلك الكلمات التي
يقال عنها أنها عربية دخيلة في اللغات الأوربية ،
ولاسيما الإسبانية والفرنسية والانجليزية ، هي في
الأصل معربة عن الهندية واللغات المحلية لمناطق أخرى
شرقي الهند ، وذلك لأن تلك الكلمات إنما شقت
طريقها إلى أوربا عن طريق التجارة على أيدي
العرب ، ولكن العرب لم يكونوا منتجين في أي
من حقلَي الزراعة والصناعة لا لشيء إلا لان الطبيعة
حرمتهم من الثروة النباتية والمعدنية . إذن فكان

أن العلاقات التجارية بين الهند والعرب راسخة
في القدم تتمثل في الأسماء الهندية المعربة أكثر منها
في إشارات أو روايات في بطون المجاميع الأدبية
والتاريخية أو المؤلفات الجغرافية ، وقد استحضرت
في ذهني عدداً من المفردات المتعلقة بالتجارة وما
اليها أتوسمها لعلها قد بقي فيها بعد طول اغترابها
ما يمكننا من ردها إلى أصلها الهندي العتيق ،
وأقدم فيما يلي بعض النتائج التي وصلت إليها بشأن
أصل طائفة من الألفاظ المعربة ، والتي ربما اعتبر
بعضها عربياً محضاً .

ويهمني أن أتوه في هذا المقام بظاهرة ربما
يكفل إبرازها القضاء سلفاً على أي استفراب يلحق
القاريء فيما بعد ، وهي أن العرب الأول الذين
نراهم عبر التاريخ يغامرون بحياتهم في لبحج البحر
الهندي إنما دأبوا على ذلك ليحلبوا من الهند وما وراء
الهند لا البضائع فحسب بل أسماءها المحلية أيضاً
كما سمعوها من أفواه الذين اختلطوا بهم وعاملوهم ،
وسيدرو ذلك طبيعياً إذا نحن قدرنا أن معظم تلك
البضائع هي التي لم يعرفها العرب في أوطانهم وغير
أوطانهم من قبل ، بل إنما عرفوها لأول مرة في
الهند ثم عرفها العالم الغربي عن طريق العرب فيما